﴿ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ
وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾

مِفْتَاحُ البَراءَة

مِفْتَاحُ البَراءَة

هو مِفتاحُ عقيدةِ الإسلام الكُبرى، لأنَّ البراءةَ مِن الشرك وأهله، والولاء والبراء والحبِّ في الله والبُغضِ في الله؛ مِن لوازم التوحيد وإخلاص الدِّين لله تعالى، وأصلٌ مِن أصولِ الإيمان، فيجِبُ على كل مُسلمٍ يدينُ لله بهذه العقيدة الفريدة؛ أن يُوالي أهلها ويُعادي أعداءها، وألَّا يتخَذ الكافرين أولياء يحبُّهم ويواليهم، بل الواجب عليه أن يُبغضَهم ويتخذّهم أعداءً؛ لأنهم أعداء لله عَزَّوَجَلَّ، فلا يجتمع إيمانٌ بالله وحبٌ لأعدائه في قلب العبد المؤمن، فلا يصح إيمان ولا إسلام دون أن يتبرَّأ المسلم مِن المشركين ومعبوداتهم، وأن يكفُرَ بالطَّاغوت، والطَّاغوتُ: هو كل ما عُبِدَ مِن دون الله.

فصِراطُ اللهِ المُستقيم يوجِبُ على أهله المؤمنين به؛ مخالفة أصحابِ الجحيم مِن كل كافرٍ ومنافقٍ سلكَ غيرَه مِن سُبُلِ الشياطين، فإنَّ الذي يُصدِّق اللهَ في أن صراطَه مستقيمًا، ولا عِوج

فيه ولا انحراف عنه؛ لا بُدَّ له مِن سلوكِه، وسلُوكُه الصحيح يقتضي مخالفة السَّالكين غيرَه وعدم الموافقة لهم أو التشبُّه بهم أو الالتقاء معهم في أي طريق أو مبدأ أو مذهب؛ لأن مَن لم يخالفهم يكون مُستحسِنًا لشيء مِن طرائقهم، أو في قلبِه ميْلٌ إليهم، وبقدر ما يستحسنُ مِن قوانينهم أو شرائعهم أو يلتقي معهم في أخلاقهم وعاداتهم فيُقلِّدهم في أزيائهم أو أخلاقهم أو أعيادهم؛ بقدر ما يبتعد عن صراطِ الله على حسب ذلك.

والبراءة: هي البُغضُ والعداوةُ والابتعادُ عن الشِّرك والمشركين اعتقادًا وعملًا وسكنًا وتنقَسِمُ إلى قسمين:

① **البراءةُ مِن العمل**: وهو البراءةُ مِن الشرك والكفر ذاته، وهذا فرضٌ لازم.

② **البراءةُ مِن العامل**: وهو البراءةُ مِن المُشرك والكافر والتابع لهم والراضي بهم.

والولاء والبراء أوثقُ عُرى الإيمان، عَنِ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ، عن النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**إِنَّ أَوْثَقَ عُرَى الْإِيمَانِ: أَنْ تُحِبَّ فِي اللهِ، وَتُبْغِضَ فِي اللهِ**»[1].

---

(١) صحيح الترغيب.

يقول عَزَّوَجَلَّ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمۡ أَوۡلِيَآءَ تُلۡقُونَ إِلَيۡهِم بِٱلۡمَوَدَّةِ وَقَدۡ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلۡحَقِّ يُخۡرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمۡ أَن تُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمۡ إِن كُنتُمۡ خَرَجۡتُمۡ جِهَٰدٗا فِي سَبِيلِي وَٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِيۚ تُسِرُّونَ إِلَيۡهِم بِٱلۡمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعۡلَمُ بِمَآ أَخۡفَيۡتُمۡ وَمَآ أَعۡلَنتُمۡۚ وَمَن يَفۡعَلۡهُ مِنكُمۡ فَقَدۡ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ١ ﴾ [الممتحنة: ١]، انظر! كيف قال؟ عدوي وعدوكم ٱللَّهُ أَكۡبَرُ وهل هناك أعظم فخرًا مِن أن يكون اسمك مُقترنًا بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فيكون عدو الله عدوًا لك، ويكون حبيب الله حبيبًا لك، نعمةٌ عظيمة لأنك تعادي وتوالي فيه ولوجهه عَزَّوَجَلَّ.

ومَن هم أعداء الله؟

قال تعالى: ﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةٗ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقۡرَبَهُم مَّوَدَّةٗ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنۡهُمۡ قِسِّيسِينَ وَرُهۡبَانٗا وَأَنَّهُمۡ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ ٨٢ ﴾ [المائدة: ٨٢].

نعم! هؤلاء هم أعدى أعداء الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ هؤلاء الذي يجب أن يُعاديهم المؤمن، وهذا ما بينه الله جَلَّ جَلَالُهُ بقوله: ﴿ لَّا تَجِدُ قَوۡمٗا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ يُوَآدُّونَ مَنۡ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوۡ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمۡ أَوۡ أَبۡنَآءَهُمۡ أَوۡ إِخۡوَٰنَهُمۡ أَوۡ عَشِيرَتَهُمۡۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ

ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ [المجادلة: ٢٢].

فمَهْمَا كانت قرابتهم، فإنهم إن كانوا مؤمنين فلا بُدَّ أن يُنابذوهم، ولهذا قال تعالى: ﴿ وَلَوْ كَانُوا۟ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِىِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨١﴾ ﴾ [المائدة: ٨١].

لا يمكن أبدًا، فاليهود والنصارى والمشركون الذين يكيدون لدين الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى ويريدون أن يُطمِسوا ويُطفِئوا نورَ الله بأفواههم، لا يمكن أن يكونوا لنا أحبَّة ولا أن نودَّهم، بل لا بُدَّ أن نُعادِيَهم ونُبغِضَهم بكل أنواع البُغضِ ابتداءً مِن الجهاد وانتهاءً بكراهية القلب.

إنَّه لا يَصِح للمؤمن دينٌ إلاَّ بمُوالاةِ أهل التوحيد، ومُعاداةِ أهل الكفر والضلال والبَراء منهم، إنها قضيَّة خطيرة، قضيَّة إيمانٍ وكفرٍ؛ كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ ﴾ [المائدة: ٥١].

وكـم يَعتصِـر القلـبُ كمـدًا وغيظًا علـى غياب هـذا المفهوم الضخم في حياة كثيرٍ مِن المسـلمين في هذا العصرِ الذي اختلَطت فيـه المفاهيـم، وتبدَّلـت فيـه المعاييـر، وانقلَبـت فيـه الموازيـن، وانتكسَـت فيـه القلوب، فصار الـولاء والحبُّ لأعـداء الله تعالى، ووضَع كثيرٌ مِن المسـلمين أيديهم في أيـدي الكافرين، ومَنحوهم غايـة المحبَّة والمـودَّة، والمناصرة والمـوالاة، ودافَعوا عنهم وعن مناهجهم وأفكارهم وقوانينهم.

فـي الوقت الـذي خذَلوا فيه أهـل التوحيد والإيمـان، وأخيرًا زاد الطيـن بِلَّـة ما يَهـذي به الجاهلون السـاذجون -ممَّن يَنتسـبون إلى الإسـلام- مِـن دعوى التقريب بيـن الأديان الثلاثة: الإسـلام، والنصرانيَّـة، واليهوديـة، تحـت أُكذُوبـة: «**الديـن للـه، والوطـن للجميع**»، مع عِلمهم أنَّ اليهودَ قد حرَّفوا التوراة، وأنَّ النصارى قد بدَّلوا الإنجيل، فلا حول ولا قوة إلاَّ بالله العلي العظيم.

انظُـر وتأمَّـل فـي كلمـة ﴿ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ﴾ لـم يُذكَـر مَـن الـذي غضِبَ عليهم! في الأولى قـال تعالى: (أَنۡعَمۡتَ) فذكر الفاعل وهـو الله المُنعِـم سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ، أمَّا هنا مع هؤلاء لـم يذكر الفاعل! لماذا؟ لأنهم بسـبب ما جاءوا به مِـن الجرائم والفظائع في حق الله

وحق أنبيائـه وملائكته وكتبه؛ غضِبَ عليهـم الله، وغضِبتْ عليهم الملائكة، وغَضِبَ عليهم المؤمنون، فينالهم الغضب مِن كل شيء لبشـاعةِ أفعالِهم ولذلك قـال تعالـى: ﴿ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ ﴾ وهذه ليست خاصَّة باليهود فقط، بل كل مَن فعل مثلهم وتشبَّه بهم ورَضي عنهم ينال ما نالوه مِن الغضب.

فمشكلة المغضوب عليهم؛ أنهم عرفوا طريق الهداية ولكنهم لم يسلكوه، وأصرُّوا على عدم السيْر فيه والعمل بمقتضاه.

أمَّا «الضالين» فهم التائهون الحائرون الذين لم يعرفوا الطريق فبالتالي لم يسلكوه.

وهُم النَّصارى ضلُّوا الطريق المُسـتقيم؛ لأنَّهم عبدَوا الله على جهل، مُتبِّعين في عباداتهم أهواءَهم، مُبتدعين في دينهم ما لم يأذن اللـهُ به، قائلين على ربّهم مـا ليس لهم به علم؛ فكانوا ضُلَّالًا لأنَّهم ضيَّعوا ما أنزل الله إليهم مِن العلم، ولم يسترشـدوا به، وعبدَوا الله بأهوائهم، وغلوا في دينهـم، واتّخذوا أحبارَهم ورُهبانهم أربابًا مِن دون الله؛ بطاعتهم فيما يُشـرِّعون لهم مِن العبادات، وفي تحريم ما أحلَّ الله، وتحليل ما حرَّم الله؛ فضلُّوا بذلك ضلالًا بعيدًا.

وهنا سؤال: لِم قُدم المغضوب عليهم على الضالين؟

قال الإمام ابن القيم في تقديم المغضوب عليهم على الضالين وجوه:

أحدها:

أنهم متقدمون عليهم بالزمان.

الثاني:

أنهم كانوا هم الذين يلون النبي مِن أهل الكتابين فإنهم كانوا جيرانه في المدينة، والنصارى كانت ديارهم نائية عنه، ولهذا تجد خطاب اليهود والكلام معهم في القرآن الكريم أكثر مِن خطاب النصارى، كما في سورة البقرة والمائدة وآل عمران وغيرها مِن السور.

الثالث:

أن اليهود أغلظ كفرًا مِن النصارى، ولهذا كان الغضب أخص بهم واللعنة والعقوبة، فإن كفرهم عن عناد وبغي كما تقدم، فالتحذير مِن سبيلهم والبعد منها أحق وأهم بالتقديم، وليس عقوبة مِن جهل كعقوبة مِن علم.

الرابع:

وهو أحسنُها أنَّه تقدم ذكر المنعم عليهم والغضب ضد الإنعام، والسورة هي السبعُ المثاني التي يُذكَر فيها الشيء ومقابله، فذكر المغضوب عليهم مع المُنعَمِ عليهم فيه مِن الازدواج والمقابلة ما ليس في تقديم الضالين، فقولك: «النَّاس مُنعَمٌ عليه ومغضوبٌ عليه فكُن مِن المُنعَمِ عليهم»، أحسنُ مِن قولك: «مُنْعَمٌ عليه وضالٌّ»[1].

(١) بدائع الفوائد.